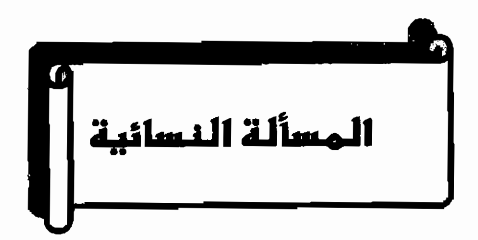

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH



- *بعض أدوار النساء في البلاط الموحدي*

بعض أدوار النساء في البلاطات الموحدية


عبد اللطيف صبان •

كل من تصفح حديث " المعجب" لعبد الواحد المراكشي عن سبب اختـــلال وضعف أحوال المرابطين إلا واسترعى نظره هذا الحكم الذي أقل ما يقال عنه أنـــه جائر متحيز في حق النساء اللمتونيات إذ يقول "واستولى النســـاء علـــى الأحـــوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة علـــى كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور(1). وليـــس، هدفنـــا إعـــادة الاعتبار ولا إزالة هذه التهمة عن النساء المرابطيات(2)، لكن في المقـــابل وبمـــا أن الشاهد عندنا مؤرخ موحدي، يحق لنا أن نتساءل عن مكانة المرأة فـــي البلاطـــات الموحدية ومدى مساهمتها في تسيير الشؤون السياسية للامبراطورية الموحدية ؟

في البداية نشير إلى أن المرأة الموحدية لم تحض بأية دراسة تذكر، بـــل إن التاريخ الموحدي عامة ما زالت تعتريه ثغرات يحاول البـــاحثون جـــهد المســـتطاع سدها. وليس من السهل والحالة هذه تمحيص كل المصادر الوسيطية ولا الإحاطـــة بجميع ما قيل بشأن النساء الموحديات. بل سنحاول التركيز على بعض الأمثلة التـــي تبرز جليا وضعية المرأة الموحدية ومواكبتها للأحداث السياسية ودورها في تســـيير عجلة الحكم الموحدي.

• أستـــاذ باحـــث

قامت الحركة الموحدية على أسس وفكرة دينية وسياسية زعزعت كيان الحكم المرابطي. وكون ابن تومرت إدارته بطريقة تراتبية عمادها مجموعة من المجالس الاستشارية أهمها مجلس العشرة والخمسين، والسبعة والسبعين ومؤسستا الطلبة والحفاظ. وكل اللوائح التي وصلتنا عن هذه المجالس والمؤسسات لا تحمل أي اسم أو لقب لامرأة موحدية ما. لكن هذا التهميش استثنى شخصية واحدة هي أم أبي بكر زينب أخت المهدي ابن تومرت(3) زعيم الحركة. فالمصادر الموحدية لا تظهر بجلاء دور هذه المرأة إبان نشوء الحركة، لكن تتبع النزر القليل من الأخبار المبعثرة هنا وهناك في بعض المصادر يميط اللثام ويلقي الضوء على سيرة هذه المرأة. فصاحب "وفيات الأعيان" يقول :" وكان قوته (ابن تومرت) من غزل أخت له رغيفا في كل يوم بقليل سمن أو زيت"(3). أما البيدق وهو شاهد عيان وبالرغم من سكوته المطبق يقول في آخر حديثه عن مرض المهدي " فحضر معه في غيبته خمس أناس، الخليفة (عبد المؤمن) وأبو إبراهيم وعمر أصناك واسنار و أخته أم عبد العزيز بن عيسى"(4). فالواضح من هذا السرد أن مكانة زينب كانت أكبر من مكانة مجموعة من أصحاب الإمام ابن تومرت، بل ويلاحظ فوق ذلك أنها كانت تحضر لزيارة المهدي في حين أن إخوته أهل أمغار لم يتم السماح لهم بذلك. هذا وبتتبع الفقرة التالية يتجلى لنا مغزى حضورها مع هؤلاء الأشخاص "... ثم خرج أبو محمد وسنار وقال يأمركم المعصوم أن تفعلوا كذا وكذا. فكنا نفعله، وكان أهل الجماعة يخرجون للغزو بالدولة، وأقام الأمر كذلك طيلة ثلاثة أعوام"(5). فاجتماع هؤلاء طيلة هذه المدة وبحضور أخت المهدي كان لتسيير أمور الدولة والقيام بأعباء الحكم. ويفصح لنا مؤرخ آخر عن ماهية هذه الأمور حيث يؤكد أن انتقال الأمور إلى الخليفة عبد المؤمن وإسناد السلطة إليه كان بإيعاز من أعضاء مجلس العشرة ومباركة أخت المهدي(6). ومهما يكن فمشاركة أخت ابن تومرت في تسيير دفة الحكم الموحدي في مرحلة عصيبة كهذه ليؤكد قوة شخصية هذه المرأة ومدى حنكتها السياسية. لكن يسدل الستار فجأة عن هذه المرأة وتنقطع أخبارها إلى الأبد.

بتولي عبد المؤمن مقاليد الحكم الموحدي، تظهر وبنوع من الغرابة شخصية امرأة جديدة إنها فندة أو بندة أخت الخليفة. وتختلف المصادر في علاقتها بعبد المؤمن، هل هي أخته من أبيه أم من أمه ؟. والحق يقال إن فندة لم يظهر لها أي أثر ولا دور يذكر إلا ما كان من حادثة أشار إليها صاحب "أخبار المهدي" عند فتح مدينة وهران من طرف القائد أبي حفص، إذ يقول "وكسر أبو حفص وهران ومات فيهم تيتلا (كذا) ومات فيهم أصحاب تاشفين، وما عاش منهم إلا واحدا يسمى بسيد الملوك بن يزدعسنيت السدراتي وبه افتديت فندة بنت علي وابنتها من فاس من عند الصحراوي"(7). فالملاحظ أن أخت الخليفة تم الإفراج عنها مقابل إطلاق سراح هذه الشخصية المرابطية المكينة. ومن ثم يمكن القول إن المرابطين كانوا على

علم بتحركات أسرة عبد المؤمن. لكن الأهم من هذا هو تلك العلاقة الخفية التي تجعلها المصادر ما بين هاتين المرأتين أخت المهدي وأخت الخليفة. هل هي الصدفة التي جعلت المؤرخين يضعون أخت الخليفة في مركز أقل من مركز أخت المهدي ؟ ألا يمكن القول إن مصادرنا حاولت أن تؤكد على وضعية زينب مقابل وضعية فندة وبالتالي وضعية آل أمغار مقابل وضعية آل عبد المؤمن ؟ هل هي الصدفة أيضا التي جعلت أخت المهدي تحمل اسما عربيا (زينب) في مقابل أخت الخليفة عبد المؤمن التي أطلق عليها إسما بربريا خالصا(فندة) ؟

لا يسعنا هنا الإجابة عن هذه الأسئلة(8)، فمؤرخو الدولة الموحدية كغيرهم يلزمون الصمت ويغضون الطرف إزاء قضية النساء في البلاطات ودورهن في حاشية الخلفاء.

بعد هذه البداية الخجولة، تنقطع الأخبار عن النساء في المصادر الموحدية إلى عهد الخليفة الناصر وبالضبط آخر حياته عند الحديث عن سبب وفاته(9). يقول صاحب "روض القرطاس": "وانغمس في لذاته، فأقام فيها مصطبحا ومغتبقا... فمات مسموما بأمر من وزرائه، دسوا إليه من سمه من جواريه في كأس من خمر فمات من حينه"(10). هذا النص يتطلب منا وقفة قصيرة. لقد كان بإمكان ابن أبي زرع أن يقول مثلا إن إحدى الجواري بأمر من بعض الوزراء سمت الخليفة فمات لكن اللوحة لم تكن لتتم إلا بإصرار المؤرخ على إدخال عنصر جديد ألا وهو الخمر، إذ النساء والخمر يتماشيان. هكذا إذن تتم الصورة ويظهر جليا المغزى الخفي. فالمتتبع للتاريخ الموحدي من خلال كتاب "روض القرطاس" يبدو له واضحا إعجاب المؤلف بفترة الخلفاء الثلاث عبد المؤمن ويوسف والمنصور، وهو ما يعرف بعصر الازدهار. خلال هذه الفترة، حسب زعم المؤلف، لم تكن النساء لتتقلد مناصب إدارية ولا لتتدخل في الشؤون السياسية. وظهورهن في هذا المجال هو إدانة بضعف الدولة وتسرب الوهن إلى كيانها وهياكلها. أما الخمر التي نعرف أن الموحدين أراقوا قنانها وكسروا جرارها ووقفوا ضدها، بل إن المنصور بموجب مرسوم منع تداول شراب الرب الذي كان حلا فيما قبل، هاهي الآن تظهر من جديد وتتداول حتى في القصور الخليفية(11). إن التلميح من طرف المؤرخ إلى النساء والخمر كسبب لموت الخليفة لم يكن جزافا بل يتطابق ونظرته إلى التاريخ الموحدي بين فترة ازدهار سالفة وبداية انحطاط وتدهور واضحة. بعبارة أخرى أن ظهور النساء والخمر هو علامة على ضعف الجهاز الموحدي الحاكم.

مع الخليفة المعتصم، تلوح في الأفق صورة أخرى قاتمة للمرأة في البلاط الموحدي، يصورها لنا ابن عذاري إبان حديثه عن العلامة الموحدية فيقول :"...وأما غيره قبل هذه المدة، فلا يرتاب في أنه كان يكتب العلامة عوضا عنه حتى لقد قيل عن امرأة إنها كانت تكتبها، فإن يحيى كان في يده اليمنى شلل وكان هذا يظهر فيه، فإنه كان لا يرفع بيده أطناب برنوسه ولا يمسك قضيبا بيده

على عادة الخلفاء"(12). فالمرأة هنا في وضعية لا تحسد عليها، لكن لنتعرف عليها علينا أن نعود إلى بداية النص.

يأتي نص ابن عذاري هذا ليؤكد سيطرة الفتى الحاجب بلال حمامة على شؤون المعتصم إلى درجة أنه كان يكتب العلامة "والحمد لله وحده" والتي هي رمز السلطة الموحدية عوضا عن الخليفة المشلول. هذه العاهة الأخيرة كانت عائقا يكفي لمنع المعتصم من الوصول للخلافة. إذن فنحن أمام سابقتين في التاريخ الموحدي أولا خليفة بدون شرعية إسلامية نظرا لعاهته، وثانيا مس برمز وهيبة الدولة لاستطالة واستحواذ هذا الفتى على العلامة الموحدية. ويزداد الطين بلة بترويج هذه الشائعة والتي مفادها أن امرأة كانت تقوم في بعض الأحيان بتقييدها. والحالة هذه فالخلاصة أو النتيجة كانت معروفة مسبقا، فالمعتصم ظل خليفة بدون عرش.

بانتقالنا إلى فترة الخليفة الرشيد، ستظهر معادلة جديدة ألا وهي النساء والروم (المرتزقة الروم) . هكذا ولأول مرة تتحدث المصادر عن شخصية أم الخليفة حبابة الرومية. إن دور هذه المرأة في حياة زوجها الخليفة المامون ما زال مغمورا وتحيطه الكثير من الشكوك يسطع نجمها فجأة عند موت زوجها، حيث يؤكد أغلب المؤرخين أنه كانت لها اليد الطويلة في تولية ابنها الخليفة الرشيد معتمدة في ذلك على جند الروم الذي يصطحبها. ابن أبي زرع وكعادته يتهمها بأنها وعدت هؤلاء المرتزقة إن ساعدوها على تولية ابنها بأنها ستخلي لهم العاصمة مراكش لنهبها. في حين ابن عذاري يعاكس هذا الطرح ويبرئ ساحة حبابة من هذه التهمة، بل ويضيف أنها تدخلت، مقابل فدية مالية دفعتها لعساكر الروم، لإنقاذ العاصمة من نهب محقق. بعد هذه المحاولة الجريئة من حبابة يغيب اسمها وتتقطع أخبارها إلى فترة الخليفة السعيد إذ يشير إليها المؤرخ ابن عذاري وهي قابعة في أحد السجون الموحدية ويضيف أن الخليفة أغرمها كذلك غرامة ثقيلة. هذا ولا نعلم سبب هذا الإجراء ولا ملابسات هذه العقوبة، كلما يمكن قوله إن حبابة لم تكن راضية عن خلافة السعيد كما أنها كانت تفضل عليه سابقا ابنها الرشيد.

الخليفة السعيد لم يسلم هو الآخر من قبضة النساء فأخته عزونة، رغم السكوت المطبق للمصادر الموحدية، يبدو أنها كانت تساعده في تسيير عجلة الحكم والإدارة الموحدية. ولإبراز دورها تكفي هذه الحادثة التي أوردها صاحب "البيان المغرب" في سنة 641 / 1243م وهي الحادثة الوحيدة المذكورة في هذه السنة مما يؤكد أهميتها. يقول المؤلف " وفي سنة 641 قتل السعيد عزوز زوج أخته عزونة وهي كانت السبب في تجرعه كأس المنون فذكر عنها أنها وجدت عنده براءة أوقفت عليها أخاها فشكرها على ذلك وأرضاها، ولم يعلم أحد ما كان فيها غيرها وأخيها، فلما وقف على البراءة المذكورة أمرها بردها إلى الموضع الذي فيه أصابتها فما علم زوجها أنها رأتها، ثم أمر بعد ذلك بثقافه بدار الإمارة، فلم يعلم أحد أي وقت لقي حمامه"(13). فعزونة سلمت زوجها عزوز الذي يظهر من ثنايا

الخطاب أنه كان من المعارضين للسعيد وربما متواطئا مع جهة أخرى ضده. بعد هذه الحادثة المؤلمة لم تنقل المصادر أي شيء آخر عن هذه المرأة إلى بداية عهد الخليفة المرتضى "الذي سجنها وأغرمها مالا كثيرا وحليا خطيرا"(14). هذا الإجراء لا نعرف حيثياته لكن من خلال سرد ابن عذاري يبدو أن المرتضى مباشرة بعد بيعته قام بالقبض على "خدام السعيد ... وحاشيته". هذا الإجراء تكرر كثيرا في التاريخ الموحدي، فبانتقال الخلافة من شخص لآخر غالبا ما تتم نكبة عمال وخدام الخليفة السابق. لكن الأهم في هذا كله هو هذا التماثل في تاريخ وأحداث حبابة أم الرشيد وعزونة أخت السعيد.

مع المرتضى لا يظهر أي أثر لامرأة على الساحة السياسية. لكن القصة التي سنوردها بين الخليفة وإحدى جواريه تشبه إلى حد بعيد قصص وروايات "ألف ليلة وليلة". هذه الحادثة انفرد بذكرها المؤرخ ابن عذاري ويرويها سماعا عن الشيخ أبي عمران بن تيجا ويفتتحها بهذه العبارة " ومما أنكر عليه". والعجيب أنه في الوقت الذي ننتظر فيه سماع أو قراءة أشياء أنكرت على الخليفة لا نجد سوى هذه الحادثة التي ينهي بها المؤلف حوادث سنة 641. والقصة مفادها أن الخليفة إثر هزيمته أمام بني مرين في وقعة بني بهلول كان قد ترك خلفه إحدى جواريه التي أخذت في الاسلاب. بوصوله للعاصمة مراكش، أرسل الخليفة فورا إلى الأمير أبي يحيى ابن عبد الحق المريني يطلبه بأن يبحث له عن جاريته وأن يعيدها له. وقام الأمير المريني بالبحث عنها إلى أن وقع عليها في بعض أحياء العرب فدفعها "للواصل إليه بسببها وهو محمد جابر فقبضها منه مقضي الأرب فيما رغب وطلب"(15). لم تنته الحكاية هنا بل توجه الواصل بالجارية إلى "الفقيه المعظم أبي العزفي صاحب سبتة برسم مارب أيضا يستقضيها له فقضاها وكسا الخادم(ة) المذكورة بكسوة عظيمة وأعطاها دابة وأكرمها وأرضاها"(16). بعد ذلك أخذ الموكب طريقه نحو مراكش حيث أوصلها الواصل" لسيدها المرتضى فقبلها وارتضاها وكانت حاجة في نفس يعقوب قضاها"(17). وبإيجاز فهذه الجارية كانت واسطة عقد في علاقة بين الموحدين والمرينيين والعرب وبني العزفي، علاقة قلما يقال عنها أنها "شنيعة" أنهاها ابن عذاري بقوله "فولدت منه الأولاد بعد ذلك بعدما راها من كل فريق من راها"(18) مما يؤكد تبرمه منها.

خلاصة.

من خلال هذا العرض الموجز، الذي لم نستوف فيه جميع المصادر إذ ركزنا فقط على بعضها، يتضح أن الموحدين بالرغم مما يقال عن صلابة عقيدتهم التوحيدية قد فتحوا ولو نسبيا المجال للنساء للعمل في الحقل السياسي وتسيير عجلة الحكم الإداري. وصحيح أيضا أن النساء ظهرن بقوة مع خلافة الناصر التي عادة ما يعتبرها المؤرخون بداية النهاية للدولة الموحدية. فلا غرابة إذن إن حاولت

الإسطغرافيا الوسيطية جعل بل وربط العلاقة بين تدهور الدولة وبين سيطرة النساء على مقاليد الحكم. ومما يثير الدهشة والغرابة أيضا هو جهلنا التام بتاريخ هؤلاء النسوة وبقصص حياتهن، فظهورهن وخفاؤهن يكون فجأة ولا يواكب دائما الأحداث. وفي الأخير نتمنى أن نكون قد ساعدنا من خلال هذه الأسطر في فتح النقاش للبحث جديا عن مساهمة المرأة في الحياة السياسية الموحدية ووضعها في مسارها الصحيح.

الهوامش.

1) — عبد الواحد المراكشي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، تحقيق سعيد العريان والعربي العلمي البيضاء دار الكتاب، 1978 ص.260.

2) — عصمت دندش، "أدوار سياسية لنساء في دولة المرابطين" من "أضواء جديدة على المرابطين"، بيروت دار الغرب الإسلامي، 1991 ص. 163 – 183. والجدير بالذكر أن الباحثة جد متحاملة على الموحدين وخصوصا زعيمهم محمد ابن تومرت الذي اعتبرته حسب قولها من "المتزمتين" بل حاولت أن تجعل له علاقة بالشيعة الباطنية (في نفس الكتاب راجع مقالها "المهدي بن تومرت والباطنية"، ص. 11 – 32).

3) — أعني بها أخته شقيقته، أما أخته لأبيه ولا نعرف اسمها فلم يكن لها دور يذكر. ابن القطان، "نظم الجمان" بيروت، دار الغرب الإسلامي 1990 ، ص. 123. مجهول، "كتاب الأنساب"، الرباط ، دار المنصور للطباعة والنشر 1971 ، ص.26.

4) — ابن خلكان، "وفيات الأعيان"، ج.5 ، بيروت ، دار صادر، 1994 ، ص. 54.

5) — البيدق،"أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية"، الرباط،دار المنصور للطباعة والوراقة،1971،ص.42.

6) — نفسه.

7) — الزركشي ،"تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية" ، تحقيق ماضور، تونس، المكتبة العتيقة،1966 ص65.

8) — البيدق، ص. 60.

9) — إن التنافس ما بين عائلة ابن تومرت (آل أمغار) وعائلة عبد المؤمن برز بالخصوص في الثورة التي أعلنها أخو المهدي عقب إعلان عبد المؤمن عن ولاية العهد لابنه محمد. راجع :

Roger Le Tourneau, "La révolte des frères d'Ibn Tumart à la dynastie Mirinide (1153 – 1156),in Mélanges d'histoire et d'Archéologie de l'occident musulman, 1957, p.111 – 116.

10) — حول ظروف موت الخليفة الناصر راجع روجي لي تورنو، "حركة الموحدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر"، ترجمة أمين الطيبي، تونس ، الدار العربية للكتاب، 1982 ، ص.98.

11) — ابن أبي زرع، "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، الرباط دار المنصور للطباعة والوراقة 1972 ، ص. 241.

12) — أحمد عزاوي ، "مجموعة جديدة من الرسائل الموحدية"، رسالة دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1985 الرسالة رقم 6 ، ص. 19.

Lévi-Provençal (E)," Trente sept lettres officielles almohades, Rabat, imp. Economique, introduction, analyse et commentaire historique, Hesperis, fasc, unique, 1941, lettre 28, p.164.

13) — ابن عذاري، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" (قسم الموحدين)، تحقيق محمد الكتاني وغيره البيضاء، دار الثقافة، 1985 ص. 329.

14) — ابن عذاري، ص. 362.

15) — نفسه ، ص. 389.

16) — نفسه ، ص. 409.

17) — نفسه.

18) — نفسه.

19) — نفسه.